جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم التاريخ
المرحلة الثانية

تاريخ البلاد العربية القديم

((الكنعانيون))

استاذ المادة أ.م.د. صبحي محمد جاسم العبيدي

العام الدراسي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

. الكنعانيون .

يحتمل أن تسمية (كنعان) تعني الأرض الأرجوانية الحمراء. فقد وردت كلمة (كناكي Knaagi) في اللغة الحورية وتعني اللون الأحمر، وتقابلها في الأكدية كلمة (كناخي) وهي في الفينيقية (كهنع) وفي العبرية (كنعان) وكلها مسميات تعني الحمرة الأرجوانية. وكنعان هو التسمية القديمة لبلاد فلسطين مثلما شوهدت في التوراة، وفي الكتابات المصرية القديمة، (نصوص العمارنة) جاءت التسمية بصيغة "كيناخني Kinakhni" أو "كيناخني Kinakhkhi". وعلى ما يظهر فإنها كانت تعني في الأصل جزءاً من ساحل البحر المتوسط عند (عكو) التي تكثر في جهاتها الشمالية مناطق أرجوانية حمراء. وقد ترجمت هذه التسمية إلى اليونانية كـ (فينيقيا) الاسم اشتق من كلمة (Phoinix) بمعنى (اللون الأرجواني)، وقد تعني نوعاً من النخيل ينمو على شواطئ هذه النواحي. وعلى كل حال فإن التسمية اليونانية والسامية القديمة تعنيان معنى واحداً، وفضلاً عن ذلك فإن هذه المدن الساحلية الواقعة على البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت في صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة.

وفي رسائل تل العمارنة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد هناك إشارات إلى المقاطعات المصرية باسم (كنعان) بسوريا السفلى تبدأ من حماه (هماث) في الشمال لحد (غزة) في الجنوب ويحتمل أنها شملت كذلك جزءاً من غربي الأردن. وذكر الكنعانيون بعض الأحيان كقوم متميزين وكانت التسمية تعني مفهوم التاجر أحياناً أخرى. فربما كانت هجرة الكنعانيين قد قدمت من جبيل نحو المواقع الفلسطينية بأعداد قليلة في البداية لا على شكل غزو منظم واحد على أية حال.

ويمكن دراسة تأريخ وحضارة الكنعانيين من خلال الحفريات الأثرية التي جرت في بلاد سوريا وفلسطين ومن مصادر كتابية مدونة، وقد جمعت هذه المعلومات في القرن العشرين وألقت أضواء على تأريخ المدن الكنعانية كأوغاريت، شخم، قطنا، مجدو عي، لاخيش، أريحا، جبيل (بيبلوس)، بيث شان وغيرها. كما درست المعابد والتلال الواقعة في بلادهم إضافة إلى المدونات الكتابية التي أضاءت حقيقة العلاقات السياسية فيها وبالأخص الرسائل التي أرسلها ملوك الدويلات السورية والفلسطينية خلال القرن الرابع عشر إلى فراعنة مصر. وبعد أن اكتشفت الألواح المكتوبة في رأس شمرا (أوغاريت) عام ١٩٢٩م التي تتحدث حول شئون إدارية في أوغاريت استطعنا التعرف على مجموعة من القصائد الدينية وأدعية كانت تتلى في المعابد في نفس المرحلة التاريخية.

ويظهر أن هذه الأدعية والقصائد قد شوهت بشكل أو بآخر في التوراة أو في المصادر المصرية ونسبت من بعد ذلك إلى الكنعانيين. وعلى كل حال فإن بلاد كنعان تعتبر من المساكن القديمة التي آوى إليها الإنسان القديم، وتطورت فيها الحياة بشكل تدريجي. لذا فقد استوطن الكنعانيون في بلاد كانت موطن الإنسان في العصر الحجري القديم وقد اكتشفت فيها هياكل إنسان من النوع النياندرتال (إنسان فلسطين) ووجدت آثار ذلك العصر في جبال الكرمل وعلى البحر الميت وفي وادي النطوف شمال غرب القدس، هذا بجانب بقايا مجتمعات الحضارة الميزوليثية (٨٣٠٠ – ٥٠٠٠ ق. م).

كما يظهر أن الإنسان تحول هنا إلى حياة الاستقرار ضمن القرى البدائية في العصر النيوليثي (فما بين ٧٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق. م) التي اكتشفت فيها مجموعات كبيرة من التماثيل المصنوعة من الطين المشوي في الطبقات السفلى. وقد استخرجت من مدن مجدو وبيث شان وبالأخص تلال (غسول) شمال البحر الميت مواد متنوعة تتصل بفنون العصر الكالكوليثي (٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق. م). وبنيت البيوت في هذه القرى بأحجار غير مقطوعة وبحيطان مصنوعة من الطين بوضعية هندسية معينة وكان هناك دلائل حول دفن الموتى داخل الجرة.

وقد عثر على آثار العصر البرونزي في مواقع عدة من بلاد كنعان وتظهر أنها كانت نتاج جماعة أخرى. وفي أواخر هذا العصر دخل العموريون إلى هذه البلاد وأخذوا يؤثرون على وضع البلاد العام. وعلى العموم فإن سكان فلسطين في هذا العصر ذوي حضارة ذات علاقة وثيقة مع تلك في جبيل بلبنان وجنوب سوريا. كما ألقت المصادر المصرية من المملكة الوسطى منذ عهد الفرعون منتوحوتب الثاني (السلالة الحادية عشرة ٢٠٦٠ – ٢٠١٠ ق. م) أضواءً على الحالة في أرض كنعان.

فمنذ عهد هذا الملك أخذت تصل إلينا الإشارات عن عمليات عسكرية له في آسيا، فقد زينت نصبه التذكارية بصور أقوام مختلفة غزاها في آسيا. واستمرت هذه العمليات العسكرية في زمن أمنمحات الأول من السلالة الثانية عشرة وكذلك سيزوستريس الأول. وقام من بعدهم الفرعون سيزوستريس الثالث بالحملة على تلك البلاد عام ١٨٥٠ ق. م ووصل حتى شخم في فلسطين حيث سيطر على المدينة على ما يظهر. وبعد قرن من الزمان وقعت بلاد كنعان تحت سيطرة الهكسوس (أو أمراء أجانب) كانوا مختلطين من الآسيويين ومن أقوام هاجرت إلى هنا من الشمال. وبتقدم الهكسوس من مصر هجر الكثير من الجموع العمورية مواطنها في أواسط سورية متقدمة نحو شرق الأردن وفلسطين مكونين (مملكة باشان) كما سكنوا مناطق واسعة من فلسطين مثل منطقة التلال في غرب الأردن وشخم٠

وعجلون وشعالبيم وجبعون (موقع الجيب الحالي) والقدس ولاخيش ويارموث ومواقع أخرى. ففي عصر الهكسوس بفلسطين حدث توسع وتقدم اقتصادي لدويلات إقطاعية على ما يظهر، حيث نمت المدن المحصنة وازدهرت التجارة. ولو أن هناك هجرات حورية إلى هذه المناطق في تلك المرحلة من التاريخ، لكن البلد ظل كنعانياً صرفاً، مع كون الهكسوس في هذا العصر يمثلون الطبقة الارستقراطية الحاكمة.

فرسائل تل العمارنة توضح ضعف السلطة المصرية وانهيار إدارتها بأرض كنعان في بداية النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد وخاصة عندما ظهر قوم فيها باسم (الخابيرو Khapiru) الذين لا يخضعون لسلطان ولا يمتثلون لقانون أو نظام وغزوهم المدن واحتلالهم الأراضي ونشرهم الرعب بين الناس وخوف الحكام منهم وقد تعاظم خطرهم بمرور الزمن. فأخبار هذا العصر تعطينا دليلاً واضحاً على كثرة الأجناس واختلاف الهويات في الأراضي الكنعانية. ففي المرحلة التي تسبق هذا العصر، أي في القرن الثامن عشر حتى السادس عشر كان قد دخل الكثير من الحوريين إلى هذه البلاد جنباً إلى جنب بعض من الحيثيين وأقوام أخرى، فخلقت هذه الظاهرة وضعاً متشابكاً مرتبكاً فيما بعد. ولكن تدخل هذه البلاد بعد هذه الفترة المضطربة تحت السيطرة المصرية في العصر الذي أطلق عليه الآثاريون البرونزي المتأخر (١٥٠٠ – ١٢٠٠ ق. م).

وفي القرن الخامس عشر غزا تحوتمس الثالث بلاد كنعان واستولى من بين ما استولى على مدن جوبا، ليدا، كيزير، تانخ ومجدو واستمر نحو الشمال إلى أن وصل إلى حلب حيث التقى بقوة وحدود الحيثيين في آسيا الصغرى. ولكن الحيثيين استطاعوا أن يستعيدوا السيطرة على شمال سوريا بعد تلك الفترة وقد وصلوا لحد جبيل (بيبلوس) وأصبحت بلاد كنعان نقطة صراع بين الإمبراطوريتين الحيثية والمصرية، إلى أن فقدت مصر نفوذها منها أيام الفرعون أمنحوتب الرابع (إخناتون ١٣٧٩ – ١٣٦٢ ق. م).

وأعاد كل من سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني (١٣٠٤ – ١٢٣٧ ق. م) السيطرة ثانية على تلك البلاد، وبالرغم من الأخبار التي دونت في مصر عن انتصارات رمسيس الثاني في معركة قادش مع الحيثيين على نهر العاصي (عام ١٢٨٨ ق. م) لكن يظهر أن نهر الكلب شمال بيبلوس وجنوب رأس شمرا أصبح الحدود الدولية بين الإمبراطوريتين. ولكن خلال الفترة النهائية للعصر البرونزي انهارت الإمبراطورية الحيثية أمام هجمات الأقوام التي اجتاحتها من الشمال. ومع بقاء النفوذ المصري ضمن حدود إمبراطوريتها في تلك الآونة إلا أن المدن القوية كان يهيمن عليها الكنعانيون، ومع ذلك فقد دخل البلاد أقوام جدد اشتهروا...

بـ (الفلسطينيين) وهم هنود أوروبيون قدموا بنسائهم وأولادهم على عجلات ليستقروا في سوريا وفلسطين ومصر، وقد حاربهم رمسيس الثالث (١١٧٩ – ١١٤٧ ق. م) في سنة ١١٧٤ ق. م وقتل منهم الكثيرين. جاءوا من كريت وسلك بعضهم جزر البحر المتوسط وأخذوا يفدون إلى سورية على عجلات ضخمة تجرها الثيران، وكانوا حسني التسليح. ووضعوا حداً لقوة مدينة أوغاريت وساروا على طول الساحل الفنيقي متجهين نحو فلسطين. وتهيأ رمسيس لصدّهم فقوّى حدوده وجمع أسطولاً ضخماً، وذكر لنا اصطدامه في سنته الثامنة بأسماء (الادانو والدانونا وبلشت (فلسطينيين) والزكارة). ولا نعرف مكان التلاحم المصري – الفلسطيني، كما انتصر رمسيس في معركته البحرية معهم وكسرهم.

إلا أن الفلسطينيين استمروا في الإيفاد إلى سوريا وفلسطين وسكنوا في المدن الكنعانية الهامة التالية (غزة وعسقلان وأشدود وإيكرون وجرار). وقد أسسوا مستعمرتين فقط عند اللد (ديوسبوليس) وصقليغ Kiklag وتقدموا نحو الداخل وتغلغلوا في بعض المدن الكنعانية الأخرى. وظلوا بادئ بدء لا يختلطون بالسكان في أرض كنعان وشكلوا طبقة عسكرية خاصة عاشت في الحاميات التي أنشؤوها يعيشون داخلها وفقاً لمتطلبات الحياة الأجنبية التي ألفوها، وقد تأثروا بحضارة البلاد الكنعانية ولغتها.

دخلت البلاد الكنعانية في عصرها الحديدي بدخول الفلسطينيين إليها وذلك لأن الحديد عم وانتشر فيها ومعالم المدنية الفلسطينية أتتنا من التنقيبات في جنوب فلسطين ومنطقة النقب. وقد ظهر في هذه الفترة نوع جديد من الفخار في السهل الفلسطيني خلال العقود الأولى من القرن الثاني عشر ق. م وبقي حتى نهاية القرن اللاحق.

أثناء تواجد المصريين في بلاد كنعان بدأ السكان هنا يدفنون موتاهم في توابيت طينية بأشكال بشرية وضع فوقها من الجهة العليا تماثيل بشرية، وقد بدأ الفلسطينيون فيما بعد بتقليد تلك المراسيم في الدفن كما تأثروا في صناعة الفخار بالفنون المصرية والقبرصية والمحلية.

فما بين نهاية العصر البرونزي وبداية عصر الحديد، حوالي عام ١٢٥٠ ق. م بدأ الغزو العبري لأرض كنعان، وإضافة إلى غزوهم لها بدأوا بالتزاوج مع سكانها، وقد تأثروا حضارياً بالكنعانيين. لكن العموريين قاوموا العبريين مقاومة شديدة، كما اصطدم الفلسطينيون بهم وقادوا مقاومة عامة للسكان ضد المحتلين.

وعلى كل حال فإن الكنعانيين انتشروا عن طريق التجارة منذ عام ١٠٠٠ ق. م في المستعمرات البحرية كقبرص وصقلية وسردينيا وحتى إسبانيا، ودخلت بلادهم فيما بعد ضمن...

الامبراطورية الآشورية ثم الكلدانية، واحتلها فيما بعد كل من الفرس الخمينيين والمقدونيين إلى أن أصبحت تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي في مطلع العصر المسيحي.

لقد تأثرت بلاد كنعان من خلال اتصالها الحضاري بالشعوب الآسيوية والسيطرة المصرية وهجرة شعوب البحر من اليونان وجزيرة كريت وغيرها بفنون وأديان مختلفة ومتباينة. وكل ما اكتشفت في مدنها تدل على ذلك الترابط الحضاري أما ما يتعلق بالدين الكنعاني فقد اكتشفت بعد سنة ١٩٢٩ م نصوص دينية في رأس شمرا تدلنا بوضوح إلى ذلك الجانب من الحياة الروحية للكنعانيين، وإن أغلب تلك النصوص ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

إن الإله المعترف به في هذه البلاد اشتهر باسم (إيل) لكن صفات قوة الخصب والمطر تجسدت في الإله (بعل) أو (حدد)، وكان هناك آلهة لا يقلون أهمية عن هؤلاء مثل (رشف) إله العذاب والعالم السفلي، والإله (كوثار) الخبير المقدس وكذلك الآلهة (عشرات) زوج (إيل) والعذراء (أنات). وإن قصة المقاومة ضد (يام) إله البحر والأنهار تتصل ببعل كإله الأمطار. وعلى كل حال فإن الإله (إيل) كان يشرف على مجاري الأنهار وعلى التنبؤ بسقوط الأمطار وكانت زوجه هي (ايلات) التي عرفت كذلك بـ (عشيرات البحر) التي ولدت ابن لحدد باسم (عليان بعل) كان له الإشراف على مياه الأرض والبحر معاً، وهو منبت الحب، كما هو إله الفيضان. وكان لهذا الإله أخت هي (عنات) وهي عذراء محاربة لها صفات (عشتار) وكان (عليان بعل) الهاً عاماً ومن أسمائه (إيل) وكان يعني في الأذهان أحياناً (الشمس).

أما اللغة الكنعانية فهي من لغات شعوب جزيرة العرب التي تتصل بشكل كبير باللغة العمورية والفنيقية وقد دونت بها لأول مرة نصوص بالألفباء الذي اشتهر عند المستشرقين بالألفباء الفنيقي الذي تطور فيما بعد عند اليونان والرومان واشتهر باسمهم. وقد اكتشف أثر لهذه الكتابة الكنعانية التي ترجع إلى العصر البرونزي المتأخر في مدينة لاخيش وكذلك في بيت شمش ولكن في رأس شمرا (أوغاريت) استعملت الخطوط المسمارية في التدوين.

لم يفتح للكنعانيين تكوين دولة كبيرة موحدة، وإنما كانوا منقسمين إلى وحدات أو دويلات صغيرة على غرار دول المدن حيث مركز الدويلة مدينة مهمة محصنة ذات قلاع وحصون. ولكن لم تسلم مثل هذه المدن ودويلاتها من أن تكون فريسة للغزو من الخارج، ومما سهل ذلك أنها لم تكن متحدة إلا في حالات كانت تقتضيها مصالح سياسية...

أو أخطار مشتركة. ومن المدن التي كانت لها أهمية في بلاد كنعان مدينة بترونا وجبيل وبيروت وصيدا وصور وهرقة وعسقلان وكلها كانت على الساحل أما في الداخل فاشتهرت كل من مدن

حزير ومجدو وغيرها. وإذا لم تستطع الدويلات الكنعانية أن تكون دولاً كبيرة تشتهر بالفتح والغزو فإن الكنعانيين وجهوا همهم إلى تنمية نواحي الحياة الأخرى كالزراعة والصناعات المهمة والتجارة الخارجية وإقامة المستعمرات التجارية خارج موطنهم. وكانت الزراعة والصيد (ولاسيما صيد الأسماك) والتجارة الخارجية أسس الحياة الاقتصادية عند المجتمعات الكنعانية، ومع أن الرقاع القابلة للزراعة غير واسعة إلا أنهم استغلوا كل بقعة في الجبال مهما صغرت، حتى أنهم غرسوا شرفات الجبل بالأشجار المثمرة كالكروم والتين والرمان والتفاح، واستغلوا كذلك زراعة أشجار الزيتون. وكان الفلاحون يكونون الطبقات الدنيا في المجتمع، والصناع والتجار الصغار الطبقة الوسطى في المدن الكنعانية بالمقارنة مع ملاكي الأرض الكبار.

ومن الصناعات المهمة التي اشتهر بها الكنعانيون صنع الفخار الذي بلغ طوراً عالياً من الإتقان منذ منتصف الألف الثاني ق. م، كما عرفوا تعدين النحاس والبرونز منذ بداية الألف الثاني ق. م، وبدأوا يستعملون الحديد بكثرة منذ الألف الأول ق. م. وقد ساعدتهم أسفارهم التجارية للحصول على المعادن كالقصدير لصنع البرونز، وقد ترقى فن الصباغة عندهم بشكل واسع.

وبرع الكنعانيون في صناعة الزجاج أيضاً، كما كانت صناعة النسيج مثل نسيج الأقمشة الصوفية من الصناعات الوطنية الكنعانية المهمة ولكن المنسوجات القطنية عرفت في الأزمان المتأخرة. ومن الصناعات المهمة في بلاد كنعان كانت صناعة الأصباغ ولاسيما القرمز والأرجوان، حيث تكثر أنواع المحار التي يستخرج منها هذه الأصباغ في سواحل البحر المتوسط، واشتهرت (صور) بهذه الصناعة شهرة واسعة.

ومن جهة أخرى فقد اقتبس البعض من أدب الكنعانيين ولاسيما العبرانيون. وقد وجدت مجموعة ألواح مكتوبة بعلامات مسمارية في أوغاريت وهي أنواع الحروف الهجائية من القرن الرابع عشر ق. م، وقد كتبت بلهجة من اللغة الكنعانية. أما مادتها فتدور حول قضايا دينية، وتعد من أقدم نماذج للآداب الكنعانية التي أثرت على العبرانيين. وترينا الأساطير الدينية في هذه الكتابات الكنعانية أنهم عبدوا القوى الطبيعية المنتجة المولدة وقوى النمو والخصب مما يميز المجتمعات الزراعية، ومن جانب آخر...

فقد تأثر الكنعانيون، مثل غيرهم من الأقوام التي استوطنت سوريا في الحضارات المجاورة التي ظهرت في البلاد المجاورة لهم ولاسيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل.

وقد أسفرت التحريات في بلاد الشام عن الكشف عن المعابد القديمة ويرجع بعضها إلى الألف الثالث قبل الميلاد وخاصة في أريحا، ومجدو وبيث شان وأوغاريت، وإلى جانب هذه المعابد

استعمل الكنعانيون لعبادة آلهتهم معابد محلية في العراء، في قمم التلال، كما دلت محتويات المدافن الكنعانية على وجود فكرة عودة الحياة من بعد الموت، مع كل ما تقدم يمكن القول بأن الكنعانيين لم يصبحوا قط ذوي حضارة خاصة مع أن إمكاناتهم الشعبية كانت قد تخولهم ذلك، إلا أن وضعهم الجغرافي، بقطاعهم الموانئ البحرية وتلك الجزر القريبة من الساحل واختراق جبال لبنان الغربية والشرقية لبلادهم، جعل منها مضايق سهلية مفتوحة على البحر وإلى الأجانب، كما خلق منها بالمقابل أيضاً بلاداً داخلية تواجه الصحراء معرضة إلى البدو المصطبغين بطابع إقليمي خاص. وبهذا كتب لهم بذلك أن يقوموا بالدرجة الأولى بدور الوسيط بين مراكز الحضارات الكبيرة، مصر وآسيا الصغرى، وبلاد الرافدين.